متحف قلالة

تحفة معمارية ووجهة سياحية

قلالة المدينة الواقعة على بعد ١٠ كيلومترات من مدخل جزيرة جربة التونسية عبر البطاحات ومن الجهة الأخرى يفصلها عن اليابسة جسر طوله سبعة كيلومترات، مدينة هادئة اشتهرت بصناعة الفخار، إذ من أول وهلة وعند دخولك المدينة سترى الفخار منتشرا على جوانب الطريق الرئيسي مما يوحي للسائح أن هذه المدينة مدينة الفخار، درج أبناؤها على الحفاظ على هذه المهنة التي توارثتها الأجيال جيلا بعد جيل، صناعة لها جذورها التاريخية ومنها ترزق عائلات .

فوزي بن يونس بن حديد

فصناعة الفخار صناعة قديمة قدم التاريخ، وعندما تزور المدينة تكتشف الدهاليز التي تحت الأرض وكيف استطاع أبناء هذه المنطقة أن يتكيفوا مع طبيعتها، يغوصون في الطين وتبتل ملابسهم به وهم فرحون ومستمتعون بهذه المهنة الشريفة التي تدر عليهم أرباحا لا بأس بها عند عرضها على السياح الأوروبيين أو بيعها خارج جزيرة جربة في مناطق أخرى من تونس، فالفخار في قلالة هو المشهد الغالب عليها، تشم رائحته وأنت تعبر أزقتها وشوارعها، وهي في أوج صنعتها..

هكذا هم أهل قلالة، البلدة التي حافظت على هويتها الأمازيغية وقرأت تاريخها ومجدت عظمتها، ما زال أهلها من الشباب والرجال والأطفال والنساء يتحدثون الأمازيغية اللغة التي اشتهر بها المغرب العربي، أو بالأحرى اللهجة التي كانوا يتحدثون بها قبل مجيء الإسلام، وعندما جاء الإسلام إلى تونس عرّبها وصارت اللغة العربية هي اللغة السائدة، وبعدها لما استعمرت فرنسا تونس أفقدتها هويتها العربية ولغتها العربية ولهجتها الأمازيغية فأصبحت اللهجة التونسية خليطا بين العربية والفرنسية ولم تعد العربية الفصحى ولا اللهجة الأمازيغية هي السائدة.

ومن هذا المنطلق فإن قلالة المدينة التاريخية التي تميزت بصناعتها والمحافظة على لهجتها كانت ولا تزال محط أنظار السياح من كافة أصقاع العالم، فمن يزور جزيرة جربة لا بد أن يمر على هذه المدينة العتيقة في صناعتها، المزدهرة بتجارتها، المكتظة بسياحها، فلا شك أنها كانت محور السياحة الأساسي في جربة الجزيرة التي يفضل أن يسميها أصحابها بأنها جزيرة الاحلام، ففيها السكون والهدوء والراحة والاستجمام والاستمتاع بالطبيعة النقية الهادئة فلا دخان المصانع ولا تلوث محركات السيارات ولا اكتظاظ الناس كما هو في المدن الكبرى في تونس العاصمة وغيرها من المدن، وحيث تختلف هذه البلدة عن بقية البلدات بأنها تتميز بهضاب غير مرتفعة كثيرا، رأت السلطات المحلية أن تستغل هذه الطبيعة في بناء متحف يجسد الحياة الجربية التقليدية التي بدأت تندثر مع الحياة العصرية وغزو الحضارات الجديدة ونسيان الكثير من العادات والتقاليد بحكم الهجرة إلى خارج البلاد والتكيف مع الأدوات الجديدة غير المألوفة في القرية، يستطيع من خلاله أبناء قلالة خاصة وجربة عامة تذكر التاريخ الجربي والقلالي بتفاصيله الدقيقة من خلال هذا التجسيد الفلكلوري الجميل في متحف قلالة.

فمتحف قلالة يعتبر الوجهة السياحية المفضلة لكثير من السياح جاء على ربوة تطل على البحر وعلى كثير من مناطق الجزيرة وترابها ونخيلها وأجوائها الساحرة، لا يبعد عن المدينة إلا أمتار قليلة لكنه يحمل بين أجنحته كل التقاليد التي تعارف عليها أهل جزيرة جربة تقريبا بدءا من أول غرفة إلى آخر

غرفة تتحدث عن التقاليد الجربية في أفراح الأعراس والختان بكل تفاصيلها وأدواتها التقليدية مستخدمين في ذلك المجسمات الطينية للتعبير عن اللباس التقليدي للرجل والمرأة في الجزيرة إلى أدوات الطبخ إلى بعض الممارسات والأعمال التي يقوم بها أهل العريس وأهل العروس في لوحات فنية شكلت فسيفساء جميلة تعبر بوضوح عن جمالية المكان والزمان، وتعطي صورة واضحة عن تفاصيل الحياة الجربية قديما دقيقها وجليلها وتعرف السائحين الذين يتوافدون على المكان من كل جهة للتعرف عليها لا سيما بعد بدء أفولها رويدا رويدا.

كما يضم معصرة قديمة في سرداب من المتحف بأدواتها التقليدية تقوم برحي الزيتون بواسطة الجمل ليقوم بعدها العاملون بطرح المعجون على طبقات من السعف المدور وتصفيفه على آلة حديدية تقوم بالضغط تدريجيا من فوق إلى أسفل ليخرج الزيت صافيا نقيا في إناء بلون ذهبي يكاد يضيء من شدة لمعانه، إلى جانب «الجاروشة» التي تقوم بدرس سنابل القمح أو الشعير بواسطة جمل أو غيره من الحيوانات الكبيرة ويستمتع الأطفال بركوب هذه «الجاروشة» وهي تقوم بدوائر متعددة وفي كل مرة تدرس الشعير أو القمح حتى يخرج من سنبله ثم يقع ذر الحصاد في الهواء وهنا يساعد الريح كثيرا في تصفية المحصول فترسل الرياح التبن بعيدا ويبقى الشعير أو القمح في مكانه وهكذا إلى أن تتم عملية الذر ويجمع المحصول من القمح أو الشعير ثم ينظف من الشوائب عن طريق وضعه في أوان كبيرة مملوءة بالماء، فيقع في قاع الإناء وتبقى الشوائب طافية ويسهل رميها بعد ذلك.

وبعد تنظيفه يشمّس بمعنى يعرض في الشمس في مكان نظيف وعلى فراش طاهر نقي إلى أن ييبس، وبعده يجمع في أكياس نظيفة من الخيش وحفظه إلى اليوم التالي عندما تأتي النساء ويتجمعن منهن من تقلي الشعير على النار في إناء يسمى «الحماس» مصنوع من حديد ويمزج بالتراب ليتم قليه جيدًا تحت نار هادئة تسمى «طابونة» وهي عبارة عن ثلاث من الأحجار

المتوسطة الحجم على شكل مثلث وفي وسطها يوضع الحطب وتوقد النار، وفي هذه الأثناء تغني النساء وهن يقمن بهذا العمل تعبيرا عن الفرحة، وبعد القلي يوضع القمح أو الشعير في إناء من الفخار يسمى « محبس» وتأتي فئة من النساء أيضا بعد تنظيف أرجلهن ليقمن بعملية اسمها «التغييز» وهي رفس الشعير والقمح برجل واحدة والأخرى ترفع ثم تتناوب الرجلان في عملية الرفس إلى أن يتخلص القمح أو الشعير من قشرته ثم يصفى عبر أداة اسمها «غربال» وهو عبارة عن مشبك من الحديد الخفيف ينقي الشعير والقمح من كل الشوائب ويبقى المحصول نظيفا، ثم يوضع في ما يسمى «مخلة» وهي عبارة عن كيس مصنوع من القماش ويضاف إليه قليلا من البهارات والملح وقشور البرتقال وضعت على النار قليلا لتعطي نكهة، وبعدها يذهب الرجل به إلى المطحنة ليتم طحنه جيدا حسب رغبة الزبون، منهم من يريده رطبا ومنهم من يريده متوسطا ومنهم من يريده أحرش.

وإلى جانب كل هذه اللوحات تقف صومعة وسط المتحف تزيد المكان هيبة وجلالا وتمنحه الهدوء والسكينة وتضفي عليه معمار جربة الذي توارثته الأجيال جيلا بعد جيل، هندسة تراثية جميلة في كل قاعة ومجسمات ترمز إلى كل عادة من العادات الخاصة بالجزيرة كيفية ختان الأطفال والاحتفال بالعرس في جزئياته الدقيقة المتعلقة بالعروس وكذلك المتعلقة بالعريس بمنحوتات طينية أكسبت المتحف جمالا وبهاء وأعطت الزائر والسائح نبذة كبيرة عن ما يقوم به الجربيون في أعراسهم وأفراحهم.

متحف قلالة متحف هو الأول من نوعه في بلدة قلالة يكتسب قيمة اقتصادية وسياحية متميزة إذ وظف كثيرا من العاملين وأدرّ على أصحابه الربح الوفير خاصة في أيامه الأولى الذي توافد عليه كثير من الجربيين وغيرهم وكثير من السائحين الأوربيين لأنه تحفة إلى جانب أنه متحف.